مكتبة الفنون

لوحات حسن سليمان.. تطارد الضوء وتلاحق الفراشات

تاريخ النشر: 23/05/2016

القاهرة: «الخليج»

رحل الفنان التشكيلي «حسن سليمان» عن الحياة، لكن يظل كتاب «نساء حسن سليمان» لعبلة الرويني، الصادر عن المجلس الأعلى للثقافة، أهم كتاب صدر عنه، فبما تمتلكه الرويني من لغة شعرية رائقة، ورؤية صافية، ومعرفة كافية بأدوات العمل التشكيلي والصحفي، أنجزت هذا الكتاب، بعد جلسات نقاش خاصة مع الفنان، الذي كان يسكن وسط البلد، في مواجهة دار القضاء العالي، في شقة بالطابق السابع، كان يسكنها أحمد بن بيلا عام 1953 في أثناء حرب التحرير الجزائرية، ثم قام بإهدائها إلى صديقه الفنان.

تصف عبلة الرويني خطواتها الأولى إلى مرسم الفنان قائلة: «ما كدت أخبط قبضة اليد الحديد على باب المرسم، حتى وجدت أمامي رجلاً قصير القامة، أحمر الوجه قليلاً، ممتلئاً بقوة أشبه بالمصارعين، من المؤكد أن أناقته مفقودة، يرتدي بنطلوناً قديماً شاحب اللون، يشده بحمالة فوق قميص أبيض، فضفاض، ليست له أزرار على ما أظن، ومن المؤكد أيضاً أنه كان يمسك منديلاً كبيراً، يبسطه بأكمله بين لحظة وأخرى، ليمسح وجهه، أو يضعه بين أسنانه، ويضغط بشدة».

لم يتكلم لكنه سار أمامها في الممر الضيق جداً - كما تصفه - وقطع النحت على الجانبين واللوحات، قطعة حفر صغير «السجين» لغويا، مستنسخ بالأبيض والأسود لأحد وجوه رمبرانت، بضع أوان نحاسية قديمة، وبضع أوان فخارية وزجاجية مختلفة الأحجام، أيضا تفضي إلى غرفة المرسم، كانت الشمس تعبر المرسم تقريبا من خلال شرفة صغيرة بأعمدة حديدية مطلية باللون الأسود، كثيرا ما نجدها داخل لوحات حسن سليمان، مثلما نرى الكرسي الخشبي الهزاز يحتل منتصف الغرفة، الذي جلست عليه الكثيرات من نساء اللوحات.

تقول عبلة الرويني: «رحت أتابع امتدادات الضوء واشتقاقات اللون والظل فوق اللوحة وفي الغرفة بأكملها، لعبة مدهشة، ذكرتني بمرايا الأطفال العاكسة للضوء فوق الحيطان وفوق وجوه الناس، وملاحقة الفراشات ومحاولة اصطيادها، كانت مطاردة الضوء والوعي به، تفتح نوافذ الطفولة وبواكير الدهشة، لعبة الضوء والعتمة، لعبة تبادل المواقع والمؤثرات لمشاهدة الآخر والبحث عن كينونته، يمر الرمادي فوق الأزرق، ويضيف طبقة أخرى من الأزرق فوق الأزرق داخل اللوحة، ليس لدى حسن سليمان لون صريح، إنه يكره الفجاجة وصراع الألوان الحاد، ذلك الصراع المجاني بلا طائل، ليس بالإمكان رؤية ألوانه تماما، يلتصق اللون باللون الآخر الذي يكاد يشبهه».

هناك دائماً لون وراء لون أو لون أمام لون، إنه العمق، يرى ما لا تراه العين العادية، فمع برودة زرقة سواد الليل، يمكنه ملاحقة دفء حمرة قرمزية غريبة، أو اخضرار أو اصفرار، يراه في نسيج الأزرق نفسه، وهنا توضح عبلة الرويني أن حسن سليمان يستخدم الألوان: الأحمر- الأزرق - الأخضر- الأصفر- البرتقالي، لكن بعد أن يدخلها في نسيجه وإيقاعاته وروحه، ولا يبوح بها أو يفصح عنها، للإفصاح معنى عاطفي يتجنبه تماما، وللإفصاح أيضا وظيفة، بينما يحرص دائما طوال تجربته على هدم الوظيفة الرمزية للون بأي شكل من الأشكال، هكذا يختبئ اللون لديه، يمتزج بعناصر متعددة، في تركيبة مدهشة يخفيها داخل روحه، تماما كصوفي لا يحب أن يفضح علامات بوحه.

تشير إلى أن الموديل عند حسن سليمان وجهة نظر، إنه يرسم رأيه في المرأة، في المجتمع، في الحضارة، ومثلما تمنحه الروح والإحساس، يمنحها الكمال والاكتمال، إنه يصحح الطبيعة بالطبيعة ذاتها، ويصحح النقص في حالتها بحالتها الأقرب إلى الكمال، إنه البحث مرة أخرى عن الجمال المثالي القادر على تمييز النقائص والشوائب والتشوهات، في الأشياء من صورها العامة، واستخلاص فكرة مجردة من أشكالها تكون أكثر كمالاً من الشكل الأصلي، وهي صفة غالبة في التقاليد الكلاسيكية، حيث للجمال قانون أو نموذج نمطي يرضي العقل في تطلبه للكمال، وحيث الشيء الناقص قبيح بقدر نقصه، كما يرى توماس الأكويني.